﴿سورة التكوير﴾

وفيها أربع مسائل :

المسألة الأولى: ما علامات الساعة التى بدأت بها السورة الكريمة ؟

الجواب: ذكرت سورة التكوير اثنتى عشرة علامة من علامات الساعة ست منها فى الدنيا وهى الست الأوَّل، وست فى الآخرة وهى الست الأُخَر... وتفصيل هذه العلامات كما يلى :

الأولى: ﴿إِذَا ٱلشَّمسُ كُوِّرَتۡ (١)﴾: وقد تعددت أقوال المفسرين فى بيان معنى التكوير على أقوال عدة بلغت قرابة عشرة أقوال، فمنها : لف بعضها على بعض فانطمس نورها، وقيل: أُلقيت في البحر، وقيل: دخلت في العرش، وقيل: اضمحلت، وقيل: نكست، وقيل غير ذلك، لكن الملاحظ أن كل هذه الأقوال تدور حول انتهاء دور الشمس ودخول الاختلال على نظامها الدقيق، قال الشنقيطى: (والذي يشهد له القرآن أن هذا كله راجع إلى تغير حالها في آخر أمرها، لأن الله تعالى جعل لها أجلاً مسمى، ومعنى ذلك أنها تنتهي إليه على الوجه الذي يعلمه سبحانه وتعالى، كما في قوله تعالى: ﴿**وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**﴾ فمفهومه: أنه إذا جاء هذا الأجل توقفت عن جريانها) [١] .

ولعل أقرب الأقوال المنقولة في ذلك هو القول بأن تكوير الشمس بمعنى نُكِست أي رُدَّت إلى حيث أتت ، كما هو معروف من طلوعها من مغربها إذا كانت الساعة، وعليه فتجتمع مع القمر.

الثانية :﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ (٢)﴾أى تساقطت على الأرض وذهب نورها، قال البغوى: (قال الكلبي وعطاء:تمطر السماء يومئذٍ نجوماً فلا يبقى نجم إلا وقع)[٢] .

الثالثة: ﴿وَإِذَا ٱلجِبَالُ سُيِّرَتۡ (٣)﴾ أى تحركت من أماكنها، وزحزحت عن مواضعها، فصارت كأنها السحاب فى السير.

---

(١) أضواء البيان ٨ / ٤٣٧.
(٢) معالم التنزيل ، ٨ / ٣٤٦ .

الرابعة : ﴿وَإِذَا ٱلعِشَارُ عُطِّلَتۡ (٤)﴾ العشار هى النوق التى أتى على حملها عشرة أشهر، (جمع عشراء مثل نفساء ، وهي أحب أموال العرب إليهم وأنفسها عندهم لأنها تجمع اللحم والظهر واللبن الوبر)[1] وأما تعطيلها فهو إهمالها وعدم الاهتمام بها والإقبال عليها، وإنما خصت النوق العشار بالذكر لأنها كانت من أنفس أموال العرب، فإذا انشغل أصحابها عنها وأهملوها مع كرامتها عليهم دل هذا على عظم الأمر الذى نزل بهم فأشغلهم عن نفائس ممتلكاتهم وكرائم أموالهم .

الخامسة :﴿وَإِذَا ٱلوُحُوشُ حُشِرَتۡ (٥)﴾ الوحش هو غير المستأنس من الدواب،وحشره أى جمعهبين يدى الملك الجليل يوم الدين، وإذا جُمعت الوحوش وهى غير مكلَّفة فكيف يُغفَل عن الإنس والجن المكلفين، ثم إن حشر الوحش لإحقاق العدل فيها ورد المظالم بينها دليل على العدل الربانى، فالشاة الجلحاء من غير قرون تأخذ حقها من الشاة القرناء التى اعتدت عليها استضعافاً لها، حتى يسأل العصفور قاتله لم قتلتنى ؟ فما بالك بالإنسان الذى يستحل دماء إخوانه وينتهك أعراضهم ولا يعتبر بالوقوف بين يدى الملك الحق .

كما أن جمع الوحش مع الإنس فى أرض المحشر فيه إشارة إلى أهوال يوم القيامة التى تشغل الناس والوحش مع ما بينهم من عداوة طبيعية أدت إلى أن يأكل بعضهم بعضاً فى الدنيا، لكنهم فى أرض المحشر يقفون متجاورين قد نزل بهم من الخطب العظيم، والخطر الجليل ما يشغل كل نفس عما حوله ... والله تعالى المستعان .

السادسة: ﴿وَإِذَا ٱلبِحَارُ سُجِّرَتۡ (٦)﴾ قيل فى تسجير البحار أقوال منها: إن التسجير هو الاشتعال بالنار، فالبحار تشتعل ناراً، فإذا كانت البحار فى الدنيا مصدراً للماء فستتحول يوم القيامة مصدراً للنيران، وقيل

---

(١) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور ٣٣٧/٨ .

التسجير هو التفجير، فالبحار ستتفجر يوم القيامة وليس بين القولين تعارض، قال البقاعى فى الآية: (فُجِّر بعضها إلى بعض حتى صارت بحراً واحداً، ومُلِئَت حتى كان ما فيها أكثر منها، وأُحمِئَت حتى كانت كالتنور التهاباً وتسعراً فكانت شراباً لأهل النار وعذاباً عليهم، ولا يكون هذا إلا وقد حصل من الحر ما يذيب الأكباد)[1]، وقيل: التسجير هو الاختلاط؛ فالبحار يوم القيامة يختلط عذبها بمالحها، ويمكن الجمع بين كل هذه المعانى بأن البحار إذا انفجرت زال ما بينها من برزخ وحدود فاختلط ماؤها العذب بالمالح ثم سُجِّرت واشتعلت فيها النيران .

السابعة: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ (٧)﴾ التزويج معناه الاقتران فالنفوس يوم القيامة ستقترن بأشكالها ومن على ملتها؛ فيُحشر أهل كل ملة معاً؛ فالفجار سيقترنون ببعضهم، وكذا الأبرار معاً، والمنافقون يحشرون مع بعضهم، وعباد الأوثان يحشرون مع أوثانهم، وعباد القمر يتبعون قمرهم، وعباد الصليب يسيرون وراء صلبانهم،ويُحشر المرء مع من أحب ... فاللهم إنا نُشهدك أنا نحب رسولك ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان وعلى، وسائر أصحاب النبى ﷺ فاحشرنا يارب فى زمرتهم وإن عجزت أعمالنا عن بلوغ غايتهم .

وقيل: بل تزويج النفوس واقترانها فى الآخرة إنما يكون بأن يجمع بين كل نفسٍ بشرية وقرينه الجنى الذى كان معه فى الدنيا يزين له المعاصى ويحبب إليه المنكرات، فيُجمعان معاً ثم يُطرحان فى النار .

الثامنة: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ (٨) بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ (٩)﴾ الموءودة هى البنت الصغيرة المقتولة، وكان العرب يدفنون بناتهم وهن أحياء مخافة الوقوع فى الأسر وجلب العار لأهاليهن، وقد سُمِّيت بالموءودة من الوأد وهو الثِقل لأنها كانت توضع فى حفرة، ويُرمى عليها التراب

(١) المرجع السابق ٣٣٧/٨ .

والحجارة حتى يئدها أى يثقل عليها فتموت مختنقة، فالوأد هو الثِقل ومنه قوله ﷻ فى آية الكرسى: ﴿**وَسِعَ كُرسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ (٢٥٥)**﴾ [1] أي لا يثقله حفظهما ولا يعجز ﷻ، فهذه الموءودة ستُسأل عن سبب قتلها، ومعلوم أن سؤالها ليس من أجل حسابها فهى لا ذنب لها، وإنما المقصود من سؤالها تقريع وتعنيف وتبكيت من قتلوها من غير ذنب ولا جريرة إلا الاعتراض على رزق الله لهم فى الذرية، ومن العجب أن تجد بعض المسلمين اليوم يكرهون أن يُرزقوا بالبنات؛ وربما نشبت الخلافات والأحزان فى بعض البيوت لأن المرأة لا تلد إلا بناتاً، وهذا فيه من الاعتراض على رزق الله ﷻ ما لا يخفى على عاقل، فضلاً عما فيه من الجهل بما فى القدر من الخير والشر، فما يدرى هذا المعترِض على رزق البنات علَّ منفعته تكون فى ابنته وهلاكه على يد ولده، ولعل الله ﷻ يودع فى البنت من الخير والرحمة والبركة ما لا يتوافر فى العصبة من الرجال، فهذه فاطمة بنت محمد وهى خيرٌ من ملء الأرض من مثل ابن نوح الكافر، وهى أنثى وهو ذكر لكنه من الكافرين وهى سيدة نساء العالمين.

التاسعة: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ (١٠)﴾ الصحف هنا هى صحائف أعمال العباد التى تكتبها الملائكة الحفظة فى الدنيا،وتُسجَّل فيها أعمال العباد من خير وشر، وهى فى الدنيا مطوية مكتومة لا يعلم دخائلها إلا علَّام الغيوب، فإذا كان يوم الدين نُشِرت هذه الصحف وأُعلنت، وصار المخبوء فيها معلناً، والمستور فيها مكشوفاً ، فكم من سوأة أخفاها صاحبها عن أعين البرايا ثم هى يوم العرض مشهودة، وكم من معصية تلبس بها صاحبها فى خفية عن أعين الناس ثم هى يوم الدين منشورة ، فمن هول هذا اليوم أنه يوم الحقائق الناصعة من غير تلوّن ولا تزييف ... والمستور من ستره الله بستره الجميل .

---

(١) سورة البقرة / من الآية ٢٥٥ .

العاشرة: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ (١١)﴾ الكشط هو الإزالة، قال الفراء: (ومعنى "الكشط" رفعك شيئا عن شيء قد غطاه، كما يكشط الجلد عن السنام)[١]، وقال الفراء فى (معانى القرآن):

("كُشطت": أى نُزعت فطويت)[٢]، وهذا مصداق قوله ﷻ: **﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِ﴾**[٣] .

الحادية عشرة: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ (١٢)﴾ أي أوقدت فأضرمت للكفار وزيد في إحمائها، يقال: سعرت النار وأسعرتها، وقراءة العامة بالتخفيف من السعير، وقرأ نافع وابن ذكوان ورويس بالتشديد لأنها أوقدت مرة بعد مرة، قال قتادة: "سعَّرها غضب الله وخطايا بني آدم"[٤]، وفي الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة "[٥] ، وروي موقوفاً.

قال الفخر الرازى: (واحتج بهذه الآية من قال النار غير مخلوقة الآن؛ قالوا لأنها تدل على أن تسعيرها معلق بيوم القيامة)[٦]، وليس فى الآية دليل على قولهم لأن التسعير بالتشديد هو الإيقاد عليها مرة بعد مرة، والمراد أنها موجودة ومخلوقة ومشتعلة الآن؛ لكنها يوم القيامة تُسعَّر وتُحمَّى زيادة على ما كانت عليه .

الثانية عشرة: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ (١٣)﴾ أي أدنيت وقُرِّبت للمتقين وذلك لعظيم مكانتهم عند خالقهم، وقيل: ليست هى التى تُدنى، وإنما يُقرَّب إليها المتقون، وعند القرطبى: (قال الحسن: إنهم يقربون منها، لا أنها تزول عن موضعها)[٧]، وقد أحسن الفخر الرازى حين قال معقباً على

---

(١) معالم التنزيل ٨/ ٣٤٨ .
(٢) معانى القرآن للفراء ٣ / ٢٤١ .
(٣) سورة الأنبياء / من الآية ١٠٤ .
(٤) الكشف والبيان ، ١٠ / ١٤٠ .
(٥) الجامع الصحيح سنن الترمذى ، ٤ / ٧١٠ ، ورقمه ٢٥٩١ .
(٦) مفاتيح الغيب ٣١ / ٦٥ .
(٧) الجامع لأحكام القرآن ١٩ / ٢٣٥ .

قوله ﷻ: ﴿**وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ (٣١)**﴾[1]حيث قال: (الجنة لا تُزَال ولا تُنقَل ولا المؤمن يؤمر في ذلك اليوم بالانتقال إليها مع بعدها لكن الله تعالى يطوي المسافة التي بين المؤمن والجنة فهو التقريب، فإن قيل فعلى هذا ليس إزلاف الجنة من المؤمن بأولى من إزلاف المؤمن من الجنة فما الفائدة في قوله:﴿**وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ**﴾، نقول إكراماً للمؤمن كأنه تعالى أراد بيان شرف المؤمن المتقي أنه ممن يُمشَي إليه ويُدنَي منه) [2] .

وقيل: إن القرب هنا ليس قرباً مكانياً، بل هو قرب حصول دخول المؤمنين فيها، فقد اقترب أوان الجائزة، ودنا موعد الثواب الذى طالما اشتاقت إليه أرواح المؤمنين فى الدنيا، فحرموا أنفسهم من اللذات، وهجروا الشهوات انتظاراً لهذه اللحظة – لحظة أن يطأوا بأقدامهم أرض الجنة – وعندها ينتهى التعب لتبدأ الراحة الأبدية .

المسألة الثانية: بم أقسم ربنا فى هذه السورة المباركة؟ وعلام أقسم؟

الجواب: قال الله ﷻ: ﴿**فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ (١٥) ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ (١٦) وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ (١٧) وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ (١٩)**﴾ فأقسم ربنا بالخنس وبالليل وبالصبح على أن هذا الكلام قول رسول كريم .

قال ﷻ: ﴿**فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ (١٥) ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ (١٦)**﴾ وهذا قسم من الله ﷻ بالنجوم، وقد وصفها بثلاث صفات، فهى خنس، جوار، كنس، فأما الخنس فهذه صفة لها من الخنس وهو الرجوع والتقهقر ومنه سُمِّى الشيطان خناساً، لأن المرء إذا استعاذ منه بالله ﷻ خنس أى رجع فى وسوسته وتقهقر عن قلب الإنسان، فالنجوم تخنس أى تختفى عن الأعين بالنهار قبل أن تظهر بالليل، وهى جوار من الجرى أى تجرى فى أفلاكها

(١) سورة ق / الآية ٣١ .
(٢) مفاتيح الغيب ٢٨ / ١٥٠ .

من غير توقف، ثم هى كُنَّس أى تغيب وتستتر في بيوتها، وهى مأخوذة من دخول الظباء أكناسها أى بيوتها وهى الكناس أى أغصان الأشجار.

ثم أقسم ربنا فقال: ﴿**وَٱللَّيلِ إِذَا عَسعَسَ (١٧)**﴾ قيل: أقسم ربنا بالليل إذا أدبر، وقيل: بل هو الليل إذا أقبل، فلفظ عسعس من المشترك اللفظى ويعرفه أهل اللغة بأنه: "هو اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل اللغة"، فعسعس يحمل اللفظ وضده فى وقت واحد، وهو بمعنى الإقبال والإدبار، قال المبرد: (هو من الأضداد، والمعنيان يرجعان إلى شيء واحدٍ، وهو ابتداء الظلام في وله، وإدباره في آخره) [١].

وفى القسم الثالث قال: ﴿**وَٱلصُّبحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨)**﴾ أى الصبح إذا انتشر ضوؤه ، ومعنى التنفس خروج النفس من الجوف، وتنفس الصبح أى هبّ نسيمه اللطيفوفى الآية مجاز على قولين:

(الأول: أنه إذا أقبل الصبح أقبل بإقباله روح ونسيم، فجعل ذلك نفساً له على المجاز، فقيل: تنفس الصبح، الثاني: أنه شبَّه الليل المظلم بالمكروب المحزون الذي خنس بحيث لا يتحرك ، فإذا تنفس وجد راحة، فها هنا لما طلع الصبح فكأنه تخلص من ذلك الحزن فعبر عنه بالتنفس)[٢]

هذا ما أقسم به ربنا فأما ما أقسم عليه فهو قوله: ﴿**إِنَّهُ لَقَولُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلعَرشِ مَكِينٍ (٢٠) مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١)**﴾.

والرسول الكريم هنا ليس هو الرسول ﷺ بل هو أمين الوحى جبريل، على قول جمهور المفسرين فقد أقسم الله ﷻ على أن القرآن الكريم أوحى به جبريل للنبى، ولا يعنى أنه ﴿**إِنَّهُ لَقَولُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩)**﴾ أن هذا القرآن كلام جبريل، بدليل قوله:﴿**رَسُولٍ**﴾ أى مرسل من غيره، (فبيَّن

(١) اللباب فى علوم الكتاب لأبى حفص عمر بن على بن عادل الدمشقى، ١٨٧/٢٠، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان الطبعة الأولى سنة ١٤١٩ هـ –١٩٩٨ م .
(٢) المرجع السابق ، ١٨٧/٢٠ .

بوصف الرسالة أنه ليس بقوله إلا لكونه مرسَلاً به ومبلِغاً له ، وأنه في الحقيقة قول من أرسله ، وصفه بما أفهمه الوصف مما يوجب حفظه من غير تحريف ما ولا تغيير أصلاً بوجه من الوجوه) [١]

ثم بينت الآيات كرامة هذا الملك الأمين ومكانته عند ربه فوصفته بأنه ﴿**كَرِيمٍ**﴾ أي انتفت عنه وجوه المذام كلها وثبتت له وجوه المحامد كلها، ﴿**ذِي قُوَّةٍ**﴾ أى قوى شديد القوة، وقد بلغ من قوته أنه رفع قرى قوم لوط إلى السماء بريشة من جناحه، ثم كفأها، قال الله ﷻ: ﴿**وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ(٥٣)**﴾[٢]، وأنه عظيم الخلقة إذا ظهر بصورته الحقيقية سد ما بين المشرق والمغرب، وقد أخبر رسولنا ﷺ أنه رآه وله ستمائة جناح، ومن المفسرين من وسَّع مدلول القوة فجعلها قوة الخِلقة، وقوة أداء طاعة الله ﷻ، وترك الإخلال بها من أول الخلق إلى آخر زمان التكليف، وعلى القوة في معرفة الله ﷻ وفي مطالعة جلال الله ﷻ، وهذا هو الأولى .

ثم استكملت الآية وصفها لجبريل بأنه ﴿**عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ(٢٠)**﴾ أى لجبريل مكانة عند الله ﷻ ومنزلة رفيعة، ثم هو مطاع عند الملائكة، فهو رئيسهم والمُقدَّم فيهم قال الله ﷻ: ﴿**مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١)**﴾ فهو مسموع القول ذو وجاهة فى الملأ الأعلى، ﴿**ثَمَّ**﴾ وثمَّ هنا تعنى: هناك أى فى الملأ الأعلى عند الملائكة، فجبريل مطاع هناك فى الملأ الأعلى، قال أبو الليث السمرقندى: (ويقال: ﴿**مُّطَاعٍ**﴾ يعني طاعته على أهل السموات واجبة كطاعة محمد ﷺ على أهل الأرض) [٣]، ﴿**أَمِينٍ**﴾ وهو أمين على ما أرسله الله ﷻ به من الوحى لا يغير ولا يخون ولا يبدل، لا كما يقول بعض فرق الشيعة: إنه خان الرسالة، فنزل بها على محمد ﷺ وكان الأصل أن تكون لعلى بن أبى طالب، تعالى الله عما يقولون ويحرفون علواً كبيراً .

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٣٤٢/٨ .

(٢) سورة النجم / الآية ٥٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨ / ٣٣٩ .

المسألة الثالثة: بم وصفت السورة الرسول ﷺ ؟

الجواب: قال الله ﷻ: **﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥)﴾**، وصاحبهم هو رسول الله ﷺ وقد وصفته الآية بأنه صاحبهم أى ليس غريباً عنهم، بل هو منهم، لازمهم أربعين سنة حتى نزلت عليه الرسالة، فهم يعرفون نسبه وحسبه وصدقه وأمانته فكيف يثنون على أخلاقه ثم يصفونه بأبشع الصفات ويرمونه بالسحر والكهانة والكذب؟ فنفت الآية عنه ما رماه به المشركون من جنون، ثم أثبتت له الآية أنه ﷺ قد رأى جبريل الذى يأتيه بالرسالة على هيئته الحقيقية التى خلقه الله عليها وله ستمائة جناح كما ثبت فى الصحيح، (وقد أثبتت هذه الآية رؤية الرسول ﷺ لجبريل – عليه السلام – مرة، مع أنه قد ثبت أنه رآه على هيئته الحقيقية مرتين، وذلك لأن المرة الثانية كانت فى رحلة الإسراء والمعراج، وَالظّاهِر – وَاَللّه أَعْلَم – أَنّ هَذِهِ السُّورَة نَزَلَتْ قَبْل لَيْلَة الْإِسْرَاء لِأَنّهُ لَمْ يَذْكُر فِيهَا إِلّا هَذِهِ الرُّؤْيَة وَهِيَ الْأُولَى، وَأَمّا الثّانِيَة وَهِيَ الْمَذْكُورَة فِي قَوْله تَعَالَى: **﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْد سِدْرَة الْمُنْتَهَى عِنْدهَا جَنّة الْمَأْوَى إِذْ يَغْشَى السِّدْرَة مَا يَغْشَى﴾** فَتِلْكَ إِنّمَا ذُكِرَتْ فِي سُورَة النّجْم وَقَدْ نَزَلَتْ بَعْد سُورَة الْإِسْرَاء [(١)].

وهذه الرؤية كانت بلا شك ولا تخيل ولا غموض، بل هى رؤية واضحة، وصفتها الآية بقول الله: **﴿وَلَقَد رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ (٢٣)﴾** وهذا دليل على وضوح هذه الرؤية وعدم تلبسها بشئ،فقد كانت بالأفق، وقيل: إن الأفق هو مطلع الشمس، ولذا فهو مبين، أى: واضح ظاهر؛ لما فى هذا التوقيت من النور والضياء الذى يزيل ظلمة الليل وتتضح فيه رؤية الأشياء .

---

(١) بحر العلوم ٣ / ٥٣٠، أبو الليث نصر بن محمد السمرقندى، دار الفكر، بيروت .

ثم وصفته بأنه ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤)﴾ أى وما رسول الله ﷺ بضنين على الغيب، ومعنى ضنين: أى بخيل، وقرأ ابن مسعود "بظنين" بالظاء، وهكذا قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي: "بظنين" يعني بمتهم، والباقون بالضاد يعني البخيل، ويكون المعنى فى القراءتين أن الرسول ﷺ ليس ببخيل بما أوحى به الله إليه، بل يبلغه كله للناس، ولا يكتم منه شيئاً، أما على المعنى الثانى للضنين وهو المتهم، فإن الرسول ﷺ مؤتمن وليس بمتهم لا عند الله ولا عند الناس، بل هو الصادق الأمين، قال ابن كثير: (وقوله: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤)﴾ أي: وما محمد على ما أنزله الله إليه بظنين، أي: بمتهم.

ومنهم من قرأ ذلك بالضاد، أي: ببخيل، بل يبذله لكل أحد، قال قتادة: كان القرآن غيباً، فأنزله الله على محمد، فما ضَنّ به على الناس، بل بَلَّغه ونشره وبذله لكل من أراده) [1].

المسألة الرابعة: ما المراد بالمشيئة هنا فى قوله ﷻ :﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ(٢٩)﴾؟ وهل يصح الاستدلال بالآيتين على أن الإنسان مُجبَرٌ مُسيَّرٌ، وليس مُخيَّراً؟

الجواب: مثل هذه الآيات التى تحدثت عن المشيئة تحتاج إلى حذر عند التناول والتفسير، فبسبب الفهم الخاطئ لمثل هذه الآيات فى القرآن الكريم زلَّت كثير من الأقدام وحارت فيها عقول وأفهام، وانحرفت بسبب الخطأ فى فهمها فرق وأحزاب، فخرجت الجبرية الجهمية التى ترى أن الإنسان مُسيَّر فى مشيئته مُجبَر على أفعاله، وظهرت المعتزلة القدرية الذين يقولون: قد يشاء العبد ما لا يشاؤه الله، وكلا المذهبين منحرف عن جادة الاعتقاد السليم والدين القويم .

(١) تفسير القرآن العظيم ٨ / ٣٣٩ .

فأهل السنة والجماعة يفرقون بين نوعين من المشيئة: مشيئة العبد، ومشيئة الرب، فيثبتون أن للعبد مشيئة لا كما ينفيها الجبرية، ودليل مشيئة العبد قوله ﷻ: ﴿ **لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَستَقِيمَ (٢٨)**﴾ فأثبت للعبد مشيئة وفعلاً، لكن مشيئة العبد معلقة بمشيئة الرب، وهذا رد على المعتزلة القدرية فيكون المعنى: لولا أن الله ﷻ شاء أن تكون للعبد مشيئة ما كانت، ولو شاء العبد شيئاً لم يشاؤه الله لن يحدث، لأن مُلك الله لا يكون فيه إلا ما يشاؤه ﷻ، وعلى هذا فلا تنافي بين إثبات المشيئتين ، لأن مشيئة الله شاملة لمشيئة العبد. والدليل على ذلك، أن العبد إذا شاءوالرب لم يشأ، لم تقع مشيئة العبد، لقوله تعالى: ﴿**وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلعَٰلَمِينَ٢٩**﴾ لكن يجب عدم إنكار أن العبد له مشيئة حقيقية، فليس مضطراً ولا مكرهاًولا مجبوراًعلى أفعاله الاختيارية بل يفعل ما يريد ويترك ما يريد بمحض اختياره وسبق إصراره، وهذا أمر يعلمه كل عاقل ويفرق بين أعماله الاضطرارية، وأعماله الاختيارية، وفى ذلك دليل على كمال عدل الله وعلمه ؛ لأن إثبات مشيئة الله العامة تدل على إثبات علمه لوقوع الأشياء وفق معلومه، وكونه سبحانه أعطى العبد مشيئة وفعلاً واختياراً رتَّب عليه الثواب والعقاب، يدل على كمال عدله. والله أعلم .

وأنقل هنا كلاماً قيِّماً قاله د. محمد راتب النابلسى فى محاضرة له فى هذا الباب: (الحقيقة أن مشيئة الإنسان مشيئة اختيار، لكن مشيئة الله ﷻ مشيئة فحصٍ واختبار، الإنسان يختار، لكن الله ﷻ يتفحَّص اختياره، فإن كان صادقاً في اختياره، ودفع ثمن اختياره، يشاء الله له ما شاء من طلب للخير، لئلا نقع في سوء فهم لهذه الآية، ولئلا نفهمها فهماً جبرياً ما أراده الله.. ﴿**إِنَّ هَٰذِهِ تَذكِرَة فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلا (٢٩) وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّه إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيما (٣٠)**﴾[١] .

(١) سورة الإنسان/ الآيتان ٢٩- ٣٠ .

تماماً كما لو قدَّم طالبٌ طلباً يختار في طلبه كلية الطب، إدارة الجامعة تفحصت الطلب، مجموعه قليل، ترفض هذا الطلب، مجموعة مناسب، تقبل هذا الطلب، مشيئة الإنسان مشيئة اختيار، لكن مشيئة الله ﷻمشيئة فحصٍ واختبار، فمن كان صادقاً في اختياره ودفع ثمن اختياره، فالله ﷻ يحقق له مراده في دخول الجنة.

وهناك وقفة دقيقة فى هذه الآية: فلهذه الآية معنىً آخر وهو: أنه لولا أن مشيئة الله شاءت أن تشاءوا لما شئتم، أنت الآن مخير، وهذا الاختيار سبب سعادتك في الدنيا والآخرة، هذه المشيئة التي تتمتع بها أيها الإنسان، لولا أن الله شاء لك أن تكون ذا مشيئة، لما كنت ذا مشيئة..**﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّه إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيما (٣٠)﴾**.